م . الطيب بلحاج

مدخل لفهم دور المثقفين في المعركة

دور المثقفين في المعركة التي لم تنته بانتهاء القتال الى ما انتهى اليه موضوع الساعة في عالمنا العربي ، ذلك ان الاحداث التي جدت منذ السادس من شهر اكتوبر على الساحة العربية قد طرحت بصورة جدية موضوع استخدام الطاقات العربية في المعركة وما نحسب طاقة المثقفين الا واحدة من الطاقات الهامة التي لم نحسن استخدامها حتى اليوم لاننا لم نخطط لاستخدامها ولم نوجهها توجيها يمكنها من ان تلعب دورها بفعالية وجدوى ، فما هو دور المثقفين في هذه الفترة التي تجتاز فيها القضية العربية ادق مراحلها ؟

لعل من المفيد قبل الاجابة على هذا السؤال ان نحدد من هو المثقف الذي نعنيه ، وما هي الابعاد الجديدة للمعرفة كما نراها ، فتحديدنا للمثقف ولصورة المعركة ضروري لفهم الدور الذي على العربي اليوم ان يلعبه .

الثقافة كما يعرفها لينتون هي « تنظيم للسلوك المكتسب ولنتائج ذلك السلوك يشترك في مكوناتها الجزئية افراد مجتمع معين ، وتنتقل عن طريق هؤلاء الافراد » .

والمثقف بهذا المعنى هو من يتقبل النمط السلوكي المكتسب لمجتمعه ، ويساهم في تكوينه ويقوم بنقله الى خلفه ونحن لا يعنينا من هذا التعريف الا الجزء الخاص بمساهمة الافراد في تكوين النمط الثقافي للمجتمع فما نوع هذه المساهمة وكيفيتها ؟.. وهل يتقبل المجتمع بسهولة مساهمات الافراد في تكوين نمطه الثقافي ؟ وما هي المساهمات التي تستطيع فرض نفسها وما هي التي تعجز عن ذلك ؟.. ان الاجابة على هذه الاسئلة تتطلب منا ضرب امثلة توضيحية تخرجنا من التجريد الى التجسيد ، وتلقي الاضواء الكاشفة على الطريقة التي يساهم بها الافراد في تكوين ثقافة المجتمع والتأثير في اتجاهاته الفكرية والعملية .

هب انسانا عثر على طريقة لتربية ابنائه تربية حسنة فان تلك الطريقة تنتقل الى جيرانه بصورة تلقائية ومن جيرانه تنتقل الى الذين يجاورونهم في احياء اخرى ، وهكذا حتى تصبح هذه الطريقة ظاهرة اجتماعية تتصل بوظيفة حيوية هي تربية الابناء واعدادهم لحياة أسعد وارغد .

وهب مزارعا اكتشف آلة زراعية او طريقة في الزراعة تختزل المجهود وتضاعف المردود ، فان هذه الطريقة او تلك الالة تنتشر بنفس الصورة التي انتشرت بها الطريقة التربوية لتصبح ظاهرة ثقافية تتصل بحاجة من حاجات المجتمع الحيوية هي الحاجة الى الحصول على غذاء وفير بمجهود قليل .

وهب قوما سادت بينهم شريعة الغاب وسيطرت عليهم الانانية واستفحلت بينهم العداوة والبغضاء واستعبد غنيهم فقيرهم ، فسالت دماؤهم فيما بينهم ثارا وانتقاما وسلب قويهم ضعيفهم ما يملكه واذل السيد فيهم عبده وعامله معاملة السوائم ، فباتت العلاقات عدواة وبغضاء وبات المجتمع كله مفككا مهددا بالفناء والدمار فظهر فيهم نبي يدعوهم الى تحرير العبيد وحفظ الجوار والتعاون فيما بينهم على ما فيه خيرهم وصلاح امرهم ، فلا شك ان دعوة هذا النبي تنتشر وتنتصر وان لاقت عراقيل وعقبات في اول امرها بحكم ان البقاء للاصلح وان الزبد يذهب جفاء ولا يمكث في الارض الا ما ينفع الناس .

وهب شعبا استعمر من طرف شعب آخر وخضع له خضوعا تاما بفعل الخوف الذي سيطر على نفوس افراده والذي نسجه الوهم وضخمه فظهر اكثر مما هو عليه في الواقع فظهر من بين ابناء الشعب المغلوب طائفة ادركوا الحقيقة وتخلصوا من سيطرة الاوهام فدعوا شعبهم الى الثورة على العدو الكامن في نفسه ونعني به الخوف من المستعمرين لانهم بذلك يسيرون في الطريق الذي يحررهم من مستعمريهم فلا شك ان دعوة هذا الفريق تنتصر وان لاقت في اول امرها عراقيل وعقبات .

والحقيقة اننا لو استنطقنا التاريخ في مختلف مراحله وتقصينا الوقائع والاحداث بصورة علمية لوجدنا الكثير من الامثلة التي توضح

لنا كيفية مساهمة الافراد في تكوين الانماط الثقافية للمجتمع سواء قصدوا ذلك وارادوه او حدث صدفة دون ارادة وقصد .

ونحن انما يعنينا في حديثنا هذا المساهمات المرادة المقصودة لانها مساهمات المثقفين وحديثنا هذا عن المثقفين دن سواهم ، ونعني بالمثقفين العلماء والمصلحين الاجتماعيين ، فليس مثقفا من اختزن علمه في صدره ولم يضعه في خدمة امته ومجتمعه ، كذلك لا يعتبر مثقفا من توفرت لديه النية الطيبة والقصد الحسن دون ان يكون له من علمه سلاح يقاوم به العراقيل ويبدد به ظلمات الجهل واليأس والقنوط .

المثقف هو من الم بالاسس الثقافية لامته وفرق بين الصالح منها والطالح ، وكان له بعصره معرفة تجعله قادرا على توجيه أمته واكسابها المناعة والحصانة حتى لا تجرفها تيارات عصرها وتحطمها تحدياته .

والحقيقة أن دور المثقفين يتعاظم شأنه وينعقد كلما تقدمت الانسانية خطوة الى الامام ، فدور المثقف في عصر العلم والتكنولوجيا والذرة والاليكترونيات ليس هو دوره في عصر الحراب السيوف وقوافل الابل والبغال ، دور المثقف في عصرنا هذا اصعب تحملا واكثر حيوية ، وتحديده يتطلب تحديد طبيعة المعركة التي نخوضها والعدو الذي نواجهه ، ومدى ما نملكه من امكانيات وطاقات المواجهة سواء في بلادنا او خارجها .

الشعب
٣١ تشرين الاول

لن يعود عصر الانحطاط

في غمرة الدم العربي المسفوح هدرا في حرب الايام الستة الشهيرة ، وتحت تأثير الصدمة التي زعزعت ايمان الانسان العربي بنفسه وبقدرته على النهوض من كبوته ومواصلة قيامه بدوره في اثراء الحضارة الانسانية ، وبفعل الحرب النفسية المركزة التي شنتها اجهزة الاعلام الصهيونية والامبريالية العالمية وساعدتها عليها دموع الضعفاء والانهزاميين من ابناء الامة العربية ، في غمرة ذلك كله خيم على سماء العرب ضباب من اليأس كثيف ، وراح الكثيرون يتساءلون : هل هي عودة الى عصور الانحطاط ؟.. وهل انتهت اليقظة العربية الحديثة الى حيث بدأت ؟.. وهل هي لعنة السماء حلت بالانسان العربي فلا امل له في الخلاص منها لانها لعنة السماء ؟.. ومن بين اشلاء الضحايا ومن خلال دموع الارامل واليتامى ومن وراء الضباب الكثيف بدأ يصيص من نور ولاحت بقية من امل وايمان عبرت عنها القيادة الثورية على لسان الاخ الرئيس هواري بومدين حين صرخ في وجوه اليائسين « اذا خسرنا معركة فاننا لم نخسر الحرب » نعم !..

اذا خسرنا معركة فان ذلك لا يعني اننا خسرنا الحرب ، وليست معركة الايام الستة غير معركة من حرب طويلة كان لا بد ان يخوضها الضعفاء للتخلص من قبضة الاقوياء ، حرب طويلة النفس متعددة الجوانب فهي حرب اقتصادية للتخلص من الاستغلال ، وهي حرب سياسية لاثبات الوجود وجمع الصف وتحديد الهدف ، وهي حرب عسكرية لتحرير الاجزاء التي ما زالت تخضع للسيطرة المباشرة الاستعمارية والعنصرية ..

نعم ليست معركة الايام الستة حربا وليست الهزيمة التي حلت بالعرب فيها توقفا عن المسير او عودة الى الوراء الى عصر الانحطاط بل هي في حقيقتها هزيمة لاسرائيل لانها فتحت اعين ضعفاء العالم على حقيقتها باعتبارها كيانا عنصريا قائما على العدوان ووجها قبيحا للاستعمار الاستيطاني في ابشع صوره واقبح اشكاله ، ورأس جسر للاستعمار الحديث تبشر بمعاليمه وقناعا يخفي به وجهه حتى لا ينكشف امره وتتضاءل فرص نجاحه ، هكذا بدت اسرائيل للافارقة وغيرهم من الاحرار في العالم خصوصا بعد هجوماتها السافرة على البلدان العربية وقتلها للابرياء لا تميز في ذلك بين الصغير والكبير والمرأة والرجل والطفل الرضيع والشيخ الواهن القوي الطاعن في السن ، ولم تكتف اسرائيل بهذا بل انها دأبت على مواجهة دعوات السلام العربية بقنابل الدمار والقتل والخراب ، ولم يكن بالوسع ان يستمر هذا الوضع طويلا بدون رد فعل يردع المعتدي ويوقف تيار العدوان ، فالعدوان وضع غير طبيعي والمعتدي عضو شاذ غريب في جسم العالم يستحيل تقبله في الحظيرة الانسانية ، وهكذا رأينا العالم الحر بعد ما رأى من طغيان الصهاينة وصلفهم وغرورهم وتماديهم في تحدي حقوق الانسان ، وبعدما عرف من طبيعتهم العدوانية ، يجنح الى عزلهم عن الحظيرة الانسانية ، فأخذت الدول الافريقية تستغني عن معوناتهم المسمومة وتقطع معهم علاقاتها مكبدة اياهم بذلك خسائر معنوية لم يتكبدوها منذ وجودهم .

وهكذا ادركت اسرائيل ومن ورائها الامبريالية الامريكية ان الوجود الاسرائيلي هو بطبيعته وجود عسكري، ومن ثم وضعت امريكا اصابعها في آذانها ، فلم تعد تسمع دعوات الاستسلام العربي التي تصاعدت في وقت من الاوقات تبارك الامر الواقع وتساوم على الاراضي العربية المحتلة وعلى حقوق شعب فلسطين في استعادة حقوقه المشروعة في الحرية والحياة .

وصمتت صمتا طويلا فلم تتقدم بمشاريع سلام ومدت بينها وبين اسرائيل جسورا تمدها من خلالها بأحدث اسلحة التدمير ، ووصل اليأس العربي حده الاقصى وفقد الانسان العربي ثقته بنفسه وبقدرته على الحرب والقتال الا انه ظل من خلال المقاومة الفلسطينية وتصميم بعض الدول العربية وفي مقدمتها الجزائر على القتال باعتباره اللغة الوحيدة التي تفهمها اسرائيل وحلفاؤها من الامبرياليين ، ظل الانسان العربي من خلال هذين العاملين يحتفظ ببقية من امل ويحافظ على بقية من حياة تدفقت في شرايينه قوية هادرة عندما عبرت قوات جمهورية مصر العربية قناة السويس لتبدأ مسيرة الكفاح واضعة نصب أعينها حقيقة واحدة هي النصر او الاستشهاد ، لقد عبرنا قناة اليأس ونحن نعبر قناة السويس ، وتجاوزنا واقعنا الانهزامي اليائس ونحن نتجاوز خطوط العدو وتحصيناته ، ودمرنا بقايا عصور الانحطاط في انفسنا وعقولنا ونحن ندمر خط بارليف ، ومنذ اليوم فلا هزيمة ولا تراجع بل تقدم وانتصار ، تقدم سنضعه بقوة انفسنا ، ونصر سنحرزه بحبنا للاستشهاد ورفضنا للاستعباد .

واذا كانت الامبريالية الامريكية قد ادركت هذه الحقيقة فاعدت عدتها الديبلوماسية والمادية لتقاتلنا دفاعا عن مصالحها وراحت قنابل اسطولها السادس وطائراته تقتل الابرياء في المدن والقرى فان ذلك كله لن يوقف الزحف العربي ولن يحول بينه وبين تحقيق اهدافه .
لقد تجاوز الانسان العربي هزيمته فلن يعود عصر الانحطاط .

الشعب
١٦ تشرين الاول